القطن واللغة العربية

هل يكون اليَقَق بمعنى القطن ؟

قامت سوق للقطن في بلاد الشام لهذه الآونة المتأخرة فأقبل الناس على زراعته ومجاراة اخوانهم المصريين في توفير غلته . وكثر التحدث عن وفرة الفائدة من وراء تجارته . واستثمار الأطيان الصالحة لغرس نبتته ، وأخذت الحكومة تُعدّ العدّة وتمهّد السُبُل أمام المزارعين وترغيبهم للعمل فيه . فلا غرو اذا تردد ذكره في الأندية ومواطن السمر . وكثر الحديث عنه بين السامرين والمزارعين .

ولبعض الشيوخ المسنين في دمشق ندوةُ سمر اشتهرت بالانتساب اليهم وقد توفروا عليها . ورفهوا عن أنفسهم في التردد اليها . ومل بعضُ هؤلاء الشيوخ يوماً كثرة الكلام في القطن وما له علاقة به . فمال به الحديث الى اللغة ولكن في موضوع القطن أيضاً فقال : ومن اسماء القطن في اللغة العربية (اليَقَق) فيحسن ان نُحيي كلمة (اليقق) ولا سيما ان الفرصة سانحة لإحيائها واستعمالها فيقال مثلاً : يَقَقُ أطيان فلان أجود من يقق أطيان فلان . وبلغ محصول أرض فلان من اليقق خمسين بالة . ومنعت الحكومة استيراد اليقق من الخارج حمايةً ليقق بلادها .

ولم يكد يتم الفاضل كلامه عن (يقق) والنصح باستعمالها حتى ردّوا عليه نصحه ناصحين له بلزوم اطراح هذا اللفظ وهجر استعماله . وضَحِكَ بعضهم من غرابته وثِقَل اللسان به . وسُئلت عن رأيي فيما قاله الفاضل . وعما اذا كان (أي اليقق) ورد بمعنى القطن . أو استعمل اسماً له ؟ فقلت : ان (يقق) ليست من الغرابة وقبح اللفظ بحيث تطرح ويترك استعمالها : اذكروها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في مجلسكم هذا المرة بعد المرة تنعم وتسلس وتخف ولا تعود أسماعكم تنبو عنها : فان تكرار ذكر اللفظ وترديده في الأفواه كفيل بصقاله . وتعبيد الطريق الى استعذابه . وترويج استعماله . وما الفرق بين يَقَق وشُقَق التي تستعملونها كثيراً في كلامكم ؟ على أن الغريب من الفاظ اللغة مهما كان ثقيلاً في السمع نابياً عن الذوق ينبغي الاهتمام به . وتفهم معناه . وتبين طرائق استعماله لا لأجل أن نستعمله نحن اليوم في حديثنا وكتابتنا . بل لنتوسل بفهمه وتحقيق معناه الى فهم النصوص القديمة المأثورة في ثقافتنا الدينية . وآدابنا العربية .

ألا ترون ان كلمة (اليقق) التي استهجنتموها وردت في كلام الفصحاء وفي نصوص السنة أيضاً (كما يأتي) . فكلتا (جُمْظُري) و (جَوّاظ) مثلاً لا يحسن ان تحول غرابتها وثقالتها دون معرفة معناهما . ومواقع استعمالها . فقد وردتا في كلام النبوة في مقام اقتضاهما . ولغرض استدعاهما . قال (ﷺ) : (أهل النار كل جُمْظُري جَوّاظ) الجمظري المتكبر الفظ والجوّاظ المتكبر المختال في مشيته . فالمقام يستدعي أن يُقذف هذا المتكبر من شنيع ألفاظ اللغة بما يحكي شناعته . وقبح حالته .

هذا ما يقال في (يقق) من حيث فصاحتها وتحديدُ مواقع استعمالها . اما ما يقال فيها من حيث ورودها بمعنى القطن او اسماً له كما قال أخونا الفاضل فهذا لا أعرفه وكل ما أعرف عن اليقق أنه من مؤكدات الألوان : يقال : أبيض يقق كما يقال أسود حالك . وأصفر فاقع . واحمر قاني . فيحسن ان تراجع المعاجم للتثبت في صحة ما قاله . وكان عزا ما قاله الى القاموس . واتفق وجود القاموس (طبعته الحسينية) تحت متناول أيدينا . فقلّبناها واذا فيها ما نصه (اليقق محركة جُمّار النخل . القطعة بهاء . والقطنُ . وأبيض يقق محركة وككتف شديدُ البياض) هذا ما قاله القاموس ولا أعلم من أين وقع في نفسي الريب من قوله . واستنكار ان تكون اليقق اسماً للقطن . فقلت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

للقوم لا ريب في صراحة هذا النص ودلالتهِ على ما أراد صاحبنا . ثم بيتُ النية على تحقيق الأمر واستنطاق المراجع الأخرى . فكان أول ما تصفحت المعاجم المطبوعة البيروتية الحديثة فاذا هي تنقل عبارة القاموس من دون زيادة سوى (الشرتوني) صاحب أقرب الموارد فانه عزا كون (اليقق) بمعنى القطن الى القاموس . فقويت الريبة في نفسي من هذا التخصيص للقاموس . وأهويت بيدي الى معاجمنا القديمة : الصحاح واللسان والأساس والمصباح والمختار وأخيراً المخصّص فلم أجد فيها كلها ما يشعر بان (اليقق) من معانيه القطن . حتى ان (ابن سيده) في المخصص نقل عن ابي حنيفة الدينوري (سيّد من كتب في النبات) : جميع ما يتعلق بالقطن من حيث اسماؤه وأثوابه فلم يذكر ان اليقق من أسماء القطن قط : وعدد من اسمائه البِرْس والكُرسف والعُطب . وهناك اسماء اخرى لما يشبه القطن ذكرها وذكر الأشجار التي تنبتها : كالخرفع (قطن العُشَر) واليلم (قطن القَصَب) والفشْغَة ما تطاير من جوف (الصاصَلّى) قال وهي أي الصاصلى حشيشة تأكل جوفه (كذا) صبيان العراق ـ ذكر ابن سيده عن الدينوري كل هذا مما يتعلق بالقطن ولم يذكر من أسمائه او من أثوابه اليقق !!!

بقي من ضروب التثبّت في الأمر الرجوع الى نسخ القاموس نفسه المطبوع منها والمخطوط .

أما المطبوع فالميمنية والحسينية المصريتان ذكرتا ان القطن من معاني اليقق وقد ذكرنا نص الحسينية الذي كان أول ما راجعناه يوم وقوع الاشكال . وعن المطبوعات المصرية أخذ كل من ألّف معجماً حديثاً في الشرق والغرب . ومثلها ترجمة احمد عاصم التركية للقاموس فانّ نسخته التي اعتمد عليها صرح فيها ان اليقق يكون بمعنى القطن وهذه عبارته (ويَفَق بموغه دينور) اي ويقال للقطن يفق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأما مخطوطات القاموس فراجعت منها سبعاً منها مخطوطة مكتبتي (وهي نسخة الأمير عبد القادر الجزائري) وبقية مخطوطات دار الكتب الظاهرية . وجميعها تقول قول المطبوعات من أن اليقق يكون بمعنى القطن سوى واحدة من تلك النسخ فانها أهملت ذكره وهي مخطوطة الشيخ (محمد سنان الدمشقي) وهي نسخة حسنة الحرف واضحة الخط ويظهر انها كتبت في حدود الألف للهجرة وقد كُتب على ظهرها ما نصه : (قابلتها وصححتها على شيخنا الشيخ محمود الكردي [1] في دروس آخرها في غرة شعبان سنة ١١٦٥ مع سبع نسخ في مدرسة المرحوم الوزير الكبير الحاج سليمان باشا (العظم) بمجلسنا بدمشق) والتوقيع (محمد سنان) وقوله (مع سبع نسخ) يدل على أن هذه النسخ السبع لم يُذكر فيها ان القطن من معاني اليقق ، وإلا لدس المصحح كلمة (القطن) في متنه او أشار اليها في هامش نسخة على الأقل .

فبهذه النسخ السبع يزداد عدد النسخ السالبة بحيث يساوي عدد النسخ الموجبة أو المثبتة . بقيت نسخة واحدة أو مرجع واحد هو أجلها قدراً . وأوثقها مصدراً . أعني به شرح القاموس للامام الزبيدي . ونسخته التي علّق شرحه عليها . وهو مطبوع في متناول كل يد . والثقة به لا تقف عند حد . فلما رجعنا اليه وجدنا نسخة متنه لم تقل ما قالته المطبوعات ولا المخطوطات فهي موافقة لنسخة (محمد سنان الدمشقي) ورأينا شارحها الزبيدي نفسه لم يتعرض الى كون القطن يسمى (اليَقَق) ولا الاشارة الى ان هناك نسخاً من القاموس مذكوراً فيها ذلك . وهذا على خلاف عادته كما لا يخفى مع ملاحظة ان الزبيدي وهو يشرح نسخته الخاصة لا بد أن يكون بين يديه مخطوطات أخرى للقاموس .

(١) جاء في تاريخ للرادي ج (٤) ص (١٢٧) : محمود العبدلاني الكردي نزيل دمشق الشيخ العلامة المحقق المدقق الفاضل قدم دمشق وسكنها الى أن مات سنة ١٢٧١ هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ينظر فيها ، ويقارن بينها . ثم يشرح ما تطمئن اليه نفسه . ويرجح صحته . فليس من الباطل أن أقول ان النسخ المثبتة للقطن تكاد تكون مفقودة في مكاتب القاهرة لذلك العهد الذي عاش فيه شيخنا الزبيدي . ورأيت أن أنهي القول في هذا الموضوع عند هذا الحد وأقرأه في احدى جلسات مجمع دمشق . ثم تفطنت الى ان اتقان العمل يكون بارجاء البحث الى حين حضوري الى مصر ومراجعة مخطوطات القاموس في خزائن دار كتبها العامرة . وخاصة شرح (القَرافي) على القاموس (وفاته سنة ١٠٠٨ هـ) واسم شرحه (القول المأنوس بتحرير ما في القاموس) . وهذا ما كان وجئت الى القاهرة فكان أول ما فعلت أن زرت دار الكتب المصرية وطلبت ما لديها من مخطوطات القاموس فوجدت القرافي في شرحه أو حاشيته لم يتعرض لمادة (يقق) . وراجعت نسخ مخطوطات القاموس وهي عشر فوجدت واحدة منها كتبت سنة ١٠٧٩ هـ أهملت القطن (كنسخة محمد سنان الدمشقية) فلم تذكر انه من معاني اليقق وبقية النسخ ذكرته فقالت (اليقق جُمّار النخل والقطن الخ) فنسبة النسخ الموجبة في مخطوطات دار الكتب المصرية كنسبة دار الكتب الظاهرية . أي أن بضع نسخ أوجبت وواحدة سلبت . وتاريخ نَسْخ هذه المخطوطات بين التسعمائة وبين الالف ومئة وخمسين للهجرة أي انها كتبت في خلال قرنين ونصف .

بعد هذا كله بقيت أفكر في المراجع التي يمكن أن تكشف الستار عن سر وجود كلمة (القطن) في القاموس وعدّها من معاني اليقق فرجعت الى نهاية ابن الأثير في شرح الفاظ غريب الحديث فوجدته يقول في (حديث ولادة الحَسَن بن علي عليهما السلام) مانصه : (ولَفّه في بيضاء كأنها اليَقَق : اليقَق المتناهي في البياض . اهـ) .

فتمثّل أمام عيني اتجاه جديد للبحث : ذلك احتمال ان تكون كلمة « القطن » كانت ثابته في نص النهاية بعد قوله (كأنها) وثبوتها هو الذي أدى الى زيادتها أو دسها في بعض نسخ القاموس من قبل النسّاخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما بسط معنى نص النهاية فهو أن النبي ﷺ شهد ولادة الحسن فلما وضعته أمه لفّته في خرقة بيضاء كأنها من شدة بياضها اليقق . واليَقَق هنا جمع يقَقَة وهي جُمّارة النخل أي شحمته البيضاء . فاليقق هنا أي في نص النهاية اسم للجُمّارة لا وصف . غير أن في قول صاحب النهاية بعدُ (اليقق المتناهي في البياض) في قوله هذا نظر اذ أنه لا يصلح أن يُلحق باليقق بمعنى الجُمّار ولا أن يفسر اليقق وهو اسم به وهو صفة . لأن اليقق الجُمّارة كما قلنا فكان عليه أن يقول : واليقق الجُمّار . أما أن يسكت عن تفسير الجمار الأبيض الذي اسمه اليقق ويعدل الى تفسير اليقق باحد معانيه وهو المتناهي في البياض مع ملاحظة أن اليقق في عبارة الحديث لم يذكر بهذا المعنى فهذا غير مستحب من صاحب النهاية بل هو لعمري مباين لعادته والتزامه الاختصار في كتابه . وبينا كنا في اشكال من نص القاموس اذا نحن في اشكال من نص النهاية ولعل بين النصين نسبة وعلاقة وان يكون تأويل نص النهاية مزيلاً لاشكال نص القاموس :

ذلك ان نجعل أصل نص النهاية هكذا (ولفّته في بيضاء كأنها القطن اليقق) لا الجمار اليَقَق ثم فسر صاحب النهاية اليقق الواقع صفة للقطن بقوله (اليقق المتناهي في البياض) ويصبح هذا التفسير ذا فائدة عظمى من حيث دلالته على ان القطن الذي شبهت به الخرقة البيضاء هو من الجنس الأبيض بياضاً خالصاً . وقد استفدنا من علماء زراعة القطن ان منه ما هو أسمر ومنه ما هو مشرب بحمرة ومنه الخالص الشديد البياض . بل زعم بعضهم ان من القطن ما هو أسود .

فاذا كان ما توقعنا من أن كلمة القطن واردة في أصل نص النهاية ثم سقطت سهواً أو خطأ وأن أصل الكلام (ولفّته في بيضاء كأنها القطن اليقق) ـ اذا كان كذلك ـ كان مؤلف القاموس أو أحد نساخ قاموسه ذهب وهَلُه الى أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القطن يسمى يَقَقاً مذ سمع راوي الحديث يشبه الخرقة البيضاء بالقطن اليقق فظن أن القطن يسمى اليقق . وهكذا وجدت كلة القطن في بعض نسخ القاموس أو على هامشه وبعضها لم توجد فيه .

فالأدلة على ما قلنا من أن القطن مدسوسة في القاموس يمكن حصرها في أربعة:

(١) لم يذكر كتاب من كتب اللغة التي بين أيدينا ان (يقق) تكون بمعنى القطن حتى ولا أبو حنيفة الدينوري الذي استصفى ابن سيده معظم أقواله في مخصصه .

(٢) لم يثبت أن الفيروزابادي صاحب القاموس دوّن اليقق بمعنى القطن في قاموسه بدليل ان هذا المعنى وجد في بعض نسخه دون بعض .

(٣) ان الزبيدي أكبر شراح القاموس لم يذكر في مادة يقق أن اليقق يكون بمعنى القطن بل يظهر أنه لم يطلع على نسخةٍ ما فيها هذا المعنى ولو اطلع لأشار الى ذلك ولا سيما انه القائل في مقدمة شرحه للقاموس واصفاً له ما نصه : (وافٍ ببيان ما اختلف من نسخه والتصويب لما صحّ منها) .

(٤) وأخيراً ان دوزي في معجمه (مكمل المعاجم العربية) لما تكلم على مادة يقق قال ما ترجمته (يقق : تجد أمثلة لاستعمالها من دون أبيض في الكامل ص ٣٣٠ سطر (١٠) وفي المقّري جزء (٣) ص (١٦٠) سطر (١٧) طبعة ليبسك سنة ١٨٦٤) وأراد بالكامل كامل المبرد طبعته الأوربية فراجعناها على أمَل ان تكون اليقق ذُكرت بمعنى القطن لا صفة تابعة مؤكدة للون القطن بالبياض فاذا المثال فيها يدل على أن مراد (دوزي) بما قال انما هو استعمال يقق بمعنى الوصف أي المتناهي في البياض وقد حذف موصوفه . وهذا ما رواه من الشعر لبعض الفضلاء وهو قوله :

(قد كنت أرتاع للبيضاء في حَلَكٍ فصرت ارتاع للسوداء في يَقَق)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أي أصبحت أذعر للشعرة السوداء في شعري اليقق : فاليقق في هذا صفة حذف موصوفها لدلالة السياق . وهو التذمر والتشاؤم بالشيب . فلا شاهد في البيت لاستعمال يقق بمعنى القطن . ولم[1] نظفر بنسخة (المقري) المطبوعة في ليبسك لنرى مثاله الذي استعملت فيه (يقق) وحدها من دون إلحاقها بأبيض . وهو في الغالب مثل ما في كامل المبرد . ولا يخفى أن دوزي الذي ذكر هذا لو ظفر بشاهد في الكتب وما أكثرها بين يديه على استعمال اليقق بمعنى القطن لذكره .

هذا وأخص بخي بقولي : ان جعل يَقَق اسماً بمعنى القطن لا دليل عليه في عامة أقوال اللغويين . وما في بعض نسخ القاموس . سهوٌ أو مدسوس .

المغربي

(١) ثم ظفرنا بنص المقري بواسطة زميلنا الأستاذ عبد الحميد العبادي بك فاذا هو قصيدة لبعض شعراء الأندلس يصف فيها خيل (المنصور) ويعدد ألوانها (فمن يقق كالطرس . . . وأبلق . . . وورد . . . وأشقر الخ)
فاليقق في هذا النص انما اريد به أيضاً معنى التناهي في البياض لا معنى القطن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net